الأم الثكلى

للكاتب الأمريكى واشنجتون إرفنج

(تعريب)

الأستاذ حسن شريف الرشيدى

ليس هذا العنوان بالترجمة الدقيقة لعنوان القصة ، ولكنه يعطينا صورة واضحة للقصة كلها التى تدور حول ثكل الأم وحنانها الأبدى . أما الترجمة الدقيقة للعنوان فهى « الأرملة وولدها » . وفى هذه القطعة يعطينا الكاتب صورة واضحة لثكل الأم الدقيق بعد أن تفجع فى ولدها وعائلها الوحيد فى أيامها الأخيرة . وقد أجاد الكاتب حقاً وليس لنا إلا محاولة إظهار إجادته هذه .

يقول الكاتب : كل من اعتاد ملاحظة ما يجرى حوله من دقائق الأمور لابد وأن يكون قد لفت نظره هدوء المناظر الريفية الانجليزية فى يوم الأحد ، إذ يهدأ صوت المصانع ولا تسمع مطرقة الحداد ، أو صفير الحراث أو قرقعة عربات النقل ، وكذلك تسكن كل أصوات الاعمال الريفية الاخرى ، بل يلاحظ أيضا قلة نباح كلاب المزارع لعدم انزعاجها بالمسافرين الذين يمرون عليها . فى مثل هذه الأوقات كثيراً ما يخيل لى أن الرياح نفسها تهدأ فى هبوبها ، وأن المناظر الطبيعية المشرقة بألوانها الخضراء الزاهية الذائبة فى الضباب الأزرق ، تشارك نفسها فى التمتع بهذا الهدوء المقدس .

وكأن العناية الالهية فرضت أن يكون يوم الصلاة يوم راحة . ولهذه الراحة المقدسة التي تتسلط على الطبيعة تأثيرها الخلق . فتهدأ كل عاطفة جامحة ، كما نشعر بأن نفوسنا تمتلىء بالقدسية الطبيعية . أما عن نفسى فكثيراً ما يعترينى إحساس فى الكنيسة الريفية وسط هدوء الطبيعة الجميل ، الذى قلما أجده فى مكان آخر . وإذا لم أكن بطبيعتى كثير التدين ، فانى أظن أنى فى يوم الأحد أكون أكثر تديناً منى فى أى يوم آخر من أيام الأسبوع . وتذكرنى طرقات هذه الكنيسة القاتمة وتماثيلها البالية وحوائطها الخشبية الداكنة بظلام السنين الماضية ، وتجعل هذا المكان ملائما للذكريات المقدسة . ولكن لقيام هذه الكنيسة فى جوار عامر بالغنى والثروة ، فقد نفذ اليها شىء من بهرج الحضارة وقلل من قداستها ، وكنت أشعر مرات عديدة أثناء الصلاة فيها ، بتشتت فكرى نحو أمور الدنيا ، وذلك من مظاهر الثراء والجمود الروحى للمخلوقات التى حولى . والكائن الوحيد فى كل المصلاة الذى ظهر أنه يشعر

تماما بالتقوى والتواضع الدينى هو امرأة عجوز نحلها الكبر حتى لتكاد تسقط تحت ثقل السنين والأدواء ، وكان يظهر عليها آثار الفقر المدقع بينما تلمح فى مظهرها بقايا عز محتشم . كان ملبسها وضيعاً جداً إلا أنه غاية فى النظافة ، كما كانت تلقى ممن حولها شيئاً من الاحترام لأنها لم تأخذ مقعدها بين فقراء القرية بل جلست وحيدة على درجات الهيكل . ويظهر أنها عاشت بعد أن فقدت كل الحب والصداقة والألفة ، ولم يبق لها إلا آمالها فى السماء . وعندما رأيتها تقوم من مقعدها ، ويكاد الضعف يقعدها ثانياً ، ثم تحنى هيكل جسمها المحطم لتقرأ صلواتها فى كتابها المقدس الذى كانت تقبض عليه بيد تهتز من الضعف ، وتنظر اليه بعين كليلة لم تكن تسمح لها بالقراءة ، ولكنها تقرأ عن ظهر قلب ، شعرت ووثقت بأن هذا الصوت الضعيف الذى ينبعث من هذه المرأة المسكينة يصعد الى السماء مباشرة أسرع بكثير من ترانيم الواعظ أو صوت الأرغن أو أناشيد المرتلين .

شغفت كثيراً بالتجوال فى الكنائس الريفية ، وكانت هذه الكنيسة مقامة فى موضع جميل ، حتى إنى كثيراً ما شعرت بدافع يدفعنى لزيارتها . كانت ترتكز على تل مرتفع قليلا ، ينعطف حوله مجرى من الماء وينحنى فى التواء جميل ثم يسير بعد ذلك فى خط مستقيم ممتد وسط مراع ناضرة خضراء ، ويحيط بالكنيسة شجر السرو المرتفع جداً ، حتى ليخيل إلى الانسان أنه غرس وقت إقامة بناء الكنيسة ، ويظهر وسط هذا الشجر برجها الملتوى يحلق حوله كثير من الطيور مثل الغربان وغيرها . جلست مرة هناك فى صباح يوم مشرق فلاحظت رجلين من حفار القبور يحفران قبراً ، وقد اختارا أحد الأركان المهملة البعيدة من فناء الكنيسة ، حيث يظهر من القبور العديدة التى فى هذا الركن والتى لا أسماء عليها ، أن الفقراء والذين لا أهل لهم يدفنون هناك بدون عناية . ثم علمت أن هذا القبر الجديد هو للابن الوحيد لأرملة فقيرة .

وبينما كنت أفكر فى الفروق بين طبقات الانسان التى تلازمه حتى تلحقه فى التراب ، دق ناقوس الكنيسة معلناً قدوم مشهد الجناز . وكان مشهداً يدل على الفقر ، ليس فيه شىء من مظاهر الفخر والجاه . وكان النعش مكوناً من أبسط المواد الخشبية وليس له غطاء يحمله بعض القرويين ، ويمشى أمامه قندلفت الكنيسة بهيئة جامدة ليس فيها شىء من مظاهر الرحمة ولم يكن فى المشهد هؤلاء الذين تعودنا أن نراهم يلبسون ثوب الحزن رياء ومداهنة ويبكون مجاملة ، بل كان هناك نائح حقيقى يسير متهدجا خلف الجثة ، وما هذا الباكى إلا الأم العجوز للابن الراحل ، وهى المرأة الفقيرة المسنة التى رأيتها قبل ذلك تجلس على درجات الهيكل . وكان يعينها على سيرها صديقة لها ، فقيرة مثلها ، تحاول جهدها أن تخفف من حزنها بكلمات

العزاء . وشيع النعش قليل من جيرانها الفقراء أيضاً ، يجرى وراءهم بعض أطفال القرية يصيحون فرحين غير مبالين ، وأحياناً يحملقون ، تدفعهم غريزة حب الاستطلاع . فى الأم الثكلى . وعندما اقترب المشهد من القبر ، خرج القس من باب الكنيسة مرتديا ثوبا أبيض وبيده الكتاب المقدس ، يتبعه مساعده ، ثم تليت الصلاة كأنها عمل إحسان . كان الميت فقيراً وخلفه معدما ، ولذا أسرع القس فى تلاوة الصلاة ، ببرود وبدون أى شعور ، ولم يترك أثناء ذلك باب الكنيسة إلا خطوات قلائل كما لم يسمع صوته عند القبر إلا لماما . ولم أكن أنتظر أن أرى صلاة الجناز ، هذا العمل النبيل المؤثر ، ينقلب إلى كلمات باردة لا قداسة فيها مطلقاً .

اقتربت نحو القبر ، وكان النعش موضوعا على الأرض ، وعليه نقش اسم وعمر الميت « جورج سومرز ، وعمره ٢٦ سنة » . ثم أعينت الأم الفقيرة على الركوع عند رأس النعش ، فضمت يديها النحيلتين بعضهما إلى بعض كأنها تصلى ، ولكنى كنت أرى من هيكل جسمها المتهدم المهتز ، وتحريك شفتيها المرتجفتين ، أنها تنظر إلى بقايا ولدها الأخيرة بلهفة قلب الأم ، نظرة الوداع الأخيرة .

وعملت التجهيزات الأخيرة لوضع النعش فى القبر . فكانت هناك تلك الحركة والضوضاء التى تندفع بخشونة وتزعج إحساسات الحزن والمحبة . وأعطيت الأوامر بالدفن بلهجة العمل الجامدة ، ولا شك أن أشد ما يؤلم سمعنا من الأصوات هو ضربات الفؤوس فى الرمل والحصى لحفر قبر عزيز لدينا . وكأن الحركة والضوضاء أيقظتا المرأة من تخيلاتها المحزنة ، فرفعت عينيها المبيضتين من الحزن ونظرت حولها بوحشة خائرة . وعندما اقترب الرجال يحملون الحبال لادلاء النعش فى القبر فركت يديها بعضهما فى بعض ، واندفعت فى تيار من البكاء المؤلم فأخذتها المرأة الرفيقة التى تعاونها من ذراعها وحاولت أن ترفعها من الأرض وأن تهمس فى أذنها بعض كلمات العزاء ، فهزت الأم رأسها فقط وضمت يديها بعضهما إلى بعض كأنها على ثقة أن كلمات العزاء قليلة الأسعاف لديها . وعندما أدليت الجثة فى القبر آلمها صوت الحبال ، ولكن عندما حدث أن اهتز النعش أثناء نزوله من عقبة ، قابلته فى طريقه ، انفجر كل حنان الأم واندفعت باكية ، كأن ضرراً وقع لابنها ، وهو الذى بعد بعداً شاسعاً عن كل آلام الحياة .

لم أستطع أن أرى أكثر من ذلك — فطغى قلبى إلى حلقى وامتلأت عيناى بالدموع ، وشعرت أنى أقوم بعمل وحشى بوقوفى هكذا ، ورؤيتى لهذا المنظر المفعم بالحزن الوالدى . فانسحبت إلى ناحية أخرى من فناء الكنيسة حيث لبثت حتى انتهى وتفرق مشهد الجناز — وعندما رأيت الأم الوالهة تتحرك ببطء من ناحية القبر ، مخلفة وراءها بقايا أعز مخلوق لديها

على الارض . لترجع إلي الوحدة والفاقة شعرت بوخزات من الألم النفسي تملأ قلبي من أجل هذه المسكينة . ففكرت في ماذا تكون أحزان الاغنياء المترفين ؟ عندهم من الاصدقاء من يواسونهم ، وعندهم من المسرات مايلهيهم ، ودنيا عريضة تبدد أحزانهم . وماذا تكون آلام الشباب ؟ فما أسرع ماتطفو أرواحهم اللدنة من تحت ضغط الكارثة وما أسرع ماتلهو عواطفهم المرنة بأمور جديدة . ولكن أحزان الفقراء الذين ليس لهم في دنياهم الخارجية مايلطف من حرارة حزنهم — وأحزان المسنين الذين لاتعد الحياة لديهم إلا يوم شتاء مطير ولا يأملون في سرور مقبل — وأحزان الارملة ، عجوز ووحيدة ومعوزة ، تنوح على ولدها الوحيد الذي كانت تعده عزاءها الاخير في أيام حياتها الباقية — هذه هي الاحزان والآلام الحقة التي تجعلنا نشعر بأن العزاء فيها عديم الجدوى .

لم أترك فناء الكنيسة إلا بعد مدة ما . وفي طريقي إلي المنزل قابلت المرأة التي كانت تعاون الأم الثكلى . وكانت لاتزال قافلة من مرافقة الأم إلى مسكنها الوحيد ، فعلمت منها بعض تفاصيل تتصل بالمشهد المحزن الذي شاهدته .

أقام والدا المتوفى في القرية منذ طفولتيهما . وكانا يسكنان كوخا من أحسن أكواخ القرية ، ويعيشان على الاعمال الريفية ، وكذلك كانا يملكان حديقة صغيرة يجنيان من ثمارها مايعينهما على الحياة السعيدة الشريفة . ثم رزقا بابنهما الوحيد ، فنما وترعرع ليكون عونا لهما وفخراً عندما يقعد بهما السن والضعف عن العمل . قالت المرأة التي تقص على هذه القصة « آه ياسيدي ، كم كان شابا جميلا ذا خلق جميل وعطف على كل الذين حوله ، وكم كان مطيعاً وباراً بوالديه ! وكم كان يبعث السرور في النفس عند رؤيته في يوم الأحد يرتدي خير ماعنده ، طويل القامة مستقيمها ، ظاهرة عليه آثار البشر ، يسير تعتمد أمه العجوز على ذراعه نحو الكنيسة . وكانت أمه دائماً شغوفة بالاعتماد على ذراع جورج أكثر من زوجها الطيب . وكان يحق للمسكينة أن تفخر به ، إذ لم يكن يوجد في القرية من الشباب مايدانيه في جمال الخلق والخلق .

وفي إحدى السنين أصاب القرية قحط وفاقة ، فاضطر الابن لسوء حظه أن يلتحق بالخدمة في إحدى السفن التي كانت تروح وتجيء في النهر المجاور . ولم يلبث طويلا في عمله حتى اختطفته عصابة من الذين يختطفون البحارة لاستعبادهم في العمل في السفن بدون أجر ، وأبحرت به .

وعلم أبواه بخبر اختطافه ، ولكن لم يعرفا أكثر من ذلك شيئاً ، وبذلك خسرا العائل الهام لهما . فأخذ الأب المسكين يضعف شيئاً فشيئاً ، حزناً ويأساً على ولده حتى واروه أخيراً القبر . وتركت الارملة وحيدة متهدمة ، ولم تكن لتستطيع أن تعول نفسها ، فمنحتها الكنيسة

إعانة طفيفة تستعين بها على العيش . أما أهالى القرية فقد غمروها بشعور العطف والرحمة كما كانت تلقى منهم شيئاً من الاحترام لشخصها المسن . ولم يفكر أحد من الأهالى فى أن يغتصبها أو يشاركها كوخها الذى قضت فيه أيام سعادتها الأولى ، وأقامت فيه وحيدة لامعين لها . أما حاجياتها الغذائية فكانت تستمدها من حديقتها الصغيرة التى كان الجيران يزرعونها لها بين حين وآخر . وحدث قبل اليوم الذى قصت على فيه تلك القصة بأيام قلائل أنه بينما كانت تجمع بعض الخضروات لغذائها سمعت باب الكوخ الذى يواجه الحديقة يفتح فجأة ، ويدخل منه شخص غريب ينظر باهتمام وبعين زائغة حوله . وكان يلبس ملابس رجال البحر ، غاية فى النحافة وشحوب الوجه ، تظهر عليه هيئة الذى أفقده المرض والجهد كل قوته . وعندما وقع نظره عليها أسرع نحوها بخطوات ضعيفة مضطربة حتى ركع أمامها وبكى بكاء الطفل ، فحدجته المرأة المسكينة بنظرة طويلة كأنها لاتفقه شيئاً . فصاح « آه يا أمى العزيزة ! ألا تعرفين ولدك ؟ ولدك المسكين جورج الذى حطمته الجروح والأمراض وأنهكه الأسر ، وقد جر جسمه المتهدم لينال راحته بين مناظر طفولته »

ولا أحاول هنا أن أفصل دقائق هذه المقابلة حيث امتزج فيها كل الامتزاج الحزن بالفرح : ألا يزال هو حياً ! وقد رجع إلى منزله ! وسيعيش أيضاً ويكون سلوى وعائل لها فى كبرها ! ولكن القدر كان قد ضرب ضربته ، ولم يكن يحتاج هذا المسكين إلا لكوخ أمه الحقير حتى يتم التدمير عمله ، وهناك ارتمى على فراش أمه الأرملة حيث قضت المسكينة قبل ذلك كثيراً من ليالى الأرق ، وكان هذا فراشه الاخير الذى لم يقم منه بعد ذلك .

وعندما سمع القرويون أن « جورج سومرز » قد آب إلى موطنه تجمعوا لرؤيته ، وبذلوا كل ما تسمح لهم به مواردهم الضئيلة لمساعدته وعونه ، وكان هو من الضعف بحيث لم يستطع الكلام ، ولكن عينيه كانت ترسل نظرات تدل على الشكر والعرفان بالجميل ، ولازمته أمه دائما ، وكان هو من جهة لا يرغب فى المساعدة من أى إنسان غيرها .

يوجد شيء من المرض يكسر من حدة الزهو فى الرجل ، ويلين من طموح القلب ويرده ثانياً الى إحساسات الطفولة . من ذلك ، الرجل الذى أضناه المرض والحزن فى كبره . من ذلك الذى تقلب على فراش من الأسى والأعياء يقاسى الوحدة والاهمال فى بلاد غريبة عنه ولم يفكر فى تلك الأم التى احتضنته وأحاطته برعايتها وحنانها في طفولته . . . حقاً ، يوجد حنان أبدى فى حب الأم لولدها يسمو على كل ميول القلب الاخرى . وقلما تضعف عاطفة الحنو هذه بالأثرة ، أو تقتل بأى خطر ، أو تقل بضآلة القيمة ، أو تزول بنكران الجميل . بل إنها تضحى بكل راحتها فى سبيل منفعته ، وتستغنى عن كل مسراتها فى سبيل إسعاده ، وبنالها

الفخر عند سعود طالعه ورخائه ، وإذا أفل نجمه يكون أعز وأحب لديها مما سبق ، وإذا أحاط العار والخزي باسمه فأنها تحبه وترعاه غير آبهة لعاره ، وإذا رماه كل العالم بنظرات الازدراء تكون هي عالمه المفعم بالعطف والحنو .

وقد قاسى «جورج سومرز» المسكين هول المرض مع الوحدة والسجن وسوء العناية ، ولذلك لم يكن يطيق أن تبعد أمه عن نظره ، فاذا تحركت بعيداً عنه تبعتها عينه دائما . وكانت تجلس ساعات متتالية بجانب فراشه تنظر اليه وهو نائم . وربما فزع أحياناً من حلم مخيف رآه في نومه فينظر حوله بلهفة ، حتى إذا رآها تنحني عليه يأخذ بيدها ويضعها على صدره ثم يستغرق في نومه هادئا مستريحا كأنه طفل . وعلى هذه الحال قضى المسكين نحبه » .

كان دافعي الوحيد عند سماع هذه القصة المحزنة أن أزور كوخ الأرملة وأهبها شيئا من المال والعزاء . وعند ما سألت عنها وجدت أن شعور القرويين الطيب دفعهم لعمل كل ما تسمح به الحال . ولما كان الفقراء يعرفون كيف يواسون بعضهم البعض في الاحزان ، فاني لم أجرؤ على أن أتطفل عليهم .

وفي يوم الأحد التالي ، عندما كنت في كنيسة القرية ، دهشت إذ رأيت المرأة المسكينة تسير متهالكة وتأخذ جلستها المعتادة على درجات الهيكل .

وقد حاولت جهدها أن ترتدي شيئا يدل على الحزن لفقد ولدها ، وليس من شيء يؤثر في النفس أكثر من هذا الجهاد بين محبتها لابنها وبين فقرها المدقع — فكانت تلف حول عنقها شريطا أسود ، وتحمل منديلا أسود ، وأشياء أخرى تافهة تحاول بها أن تظهر مبلغ حزنها الدفين . وعندما وقع نظري على التماثيل الضخمة والنقوش الثمينة المصنوعة من الرخام التي تظهر بجلال وروعة الحزن على الاشراف الراحلين ، والتفت الى هذه الارملة المسكينة التي تحطم قلبها ، وأخفى ظهرها الكبر والحزن ، تركع على هيكل ربها وتتمتم بصلوات التقوى والورع شعرت بأن هذه الدمية الحية ، هي خير مثل للحزن الحقيقي ، وأبين له من كل ما ذكر .

قصصت قصتها هذه على بعض الأغنياء الذين كانوا يصلون في الكنيسة ، فتأثروا منها وبذلوا كثيرا من وسعهم ليعاونوا الام ويخففوا من أحزانها . فكان ذلك بمثابة تسهيل طريقها الى القبر . وبعد أسبوع أو أسبوعين ، في يوم أحد ، لم تكن ترى في مجلسها المعتاد في الكنيسة . وقيل أن أرجل من هذه الناحية علمت بشعور الاطمئنان أنها قضت نحبها ، وأنها رحلت لتلاقي الذين تحبهم في ذلك العالم الذي لا يعرف فيه الحزن مطلقاً ولا يفترق فيه الأصدقاء والمحبون أبدا ؟

حسن شريف الرشيدي